في التنوير الإسلامي
« ٤٧ »

السُّنة النبوية والمعرفة الإنسانية

تأليف
د / محمد عمارة











السنة النبوية
والمعرفة الإنسانية

تأليف
د. محمد عمارة





اسم الكتاب	السنة النبوية والمعرفة الإنسانية
اسم المؤلف	د . محمد عمارة
اشراف عام	داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر	مايو ٢٠٠٠
رقم الإيداع	٧٧٠٧ / ٢٠٠٠ م .
الترقيم الدولى	I . S . B . N 977 - 14 - 1283 - 3
الناشر	نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .
المركز الرئيسى	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط) فاكس: ٣٣٠٢٩٦/٠١١ .
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥/٠٢ . فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥/٠٢ . ص.ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤/٠٢ . فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦/٠٢ . ص.ب: ٢٠ إمبابة .

تمهيد

على مر تاريخ الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية ، نهضت السنة النبوية بدور المصدر الثانى من مصادر التشريع - إذ المصدر الأول هو القرآن الكريم . . . وبهذا الاعتبار ، حظيت السنة باهتمامات فكرية وخدمات علمية ، يسرت للأمة الاستفادة منها فى هذا الميدان . . ميدان التشريع ، والفقه ، والقانون .

كذلك ، حظيت السنة النبوية بجهود علمية متميزة - وربما غير مسبوقة في الفكر الدينى والحضارى لدى الأمم الأخرى - بميادين التوثيق . . والإسناد . . والرواية . . والجرح والتعديل للرجال الذين رووها ودونوها . حتى ليمكن للحضارة الإسلامية أن تفاخر بالمناهج والتطبيقات التى تبلورت علماً شامخاً فى توثيق النصوص والمأثورات والمرويات . . وهو علم يمكن أن يتعدى حدود السنة إلى ميدان التاريخ . . . .

وإلى حد ما ، حظيت السنة النبوية بجهود علمية فى ميدان «الدراية» والكشف عن علل المتن ومقارنة المرويات . . وخاصة فى عرض الأحاديث على محكم القرآن الكريم . . وهى جهود تحتاج المزيد من المتابعات والإضافات . .

لكن هناك ميادين فى علوم السنة النبوية ، تحتاج إلى ريادات بحثية لأنها لا تزال بكراً حتى الآن . . ومنها الكشف عن ما فى

السنة النبوية من مصادر للمعرفة الإنسانية ، وخاصة في ميدان السنن والقوانين الإلهية - سنن وقوانين المجتمع الديني .. والتقدم والتراجع .. والتجديد والجمود .. والنهوض والانحطاط - .. فإسلامية المعرفة الاجتماعية والإنسانية تستلزم النظر إلى السنة النبوية بهذا الاعتبار ، وبقدر ما تتزايد حاجات أمتنا إلى فقه النهضة ، والوعي بسنن الإقلاع الحضاري .. بقدر ما تتزايد حاجات العقل المسلم كي يدرك ما في السُّنَّة النبوية من كنوز في هذه الميادين.

ولعل هذه الصفحات - التي تتناول طرفاً من مكانة السنة النبوية في المعرفة الإنسانية - أن تكون إضافة متواضعة لجهود حديثة - محدودة - .. وأن تغري بالبحث الجاد والمعمق في هذه الميادين ..

❀ ❀ ❀

بين منهجين ..

فى مناهج الفكر ، السائدة والمؤثرة فى الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة - بشقيها الليبرالى والشمولى - وبسبب من النزعة المادية فى دراسة الواقع والتاريخ وتفسيرهما ، كانت السيادة للمناهج الوضعية التجريبية أكثر من غيرها ، بل ودون غيرها فى أغلب الميادين ...

فالإنسان بنظر هذه الحضارة هو الإنسان الدنيوى ، إنسان عالم الشهادة .. إنسان ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ .. وحتى عندما يتدين فإن تدينه يقف عند الطقوس ، فلا يعرف طريقه إلى تشكيل واقعه ونظرته للدنيا ومناهجه فى التفكير ...

وبسبب من سيادة هذه النزعة « الدنيوية - العلمانية » ، لم تعتمد مناهج الفكر الوضعى هذه سوى «الدنيا - العالم - المحسوس» مصدراً وحيداً للمعرفة الحقيقية والعلم الصحيح ، كما وقفت فى أدوات المعرفة عند الحواس دون سواها ، وقطعت فيما يشبه الإطلاق والتعميم ، بأن ما سوى المادة والمحسوس ، وما سوى الحواس - والعقل قوة من قواها - لا يمكن أن يثمر معرفة صادقة ولا علماً يقينياً ، وأقصى ما يبلغه هو إنتاج «الخيال» «

والميتافيزيقا» التى إن أشبعت «الوجدان» فإنها لا ترقى إلى ما تطمئن إليه « العقول »!.

ولذلك المنطلق والموقف فى المذهبية الغربية كان انفراد « المنهج التجريبى » لديها كالمنهج الوحيد القادر والصالح لأن يثمر المعارف اليقينية التى تستحق احترام المفكرين والعلماء.. فلأن أصحاب هذه النزعة قد اختزلوا عالم الإنسان إلى « عالم الشهادة » كان اختزالهم مصادر المعرفة الصحيحة إلى الظواهر المادية دون غيرها، ومن ثم اختزالهم أدوات المعرفة فى الحواس.. تلك هى النزعة السائدة والمؤثرة فى مناهج الفكر الغربى.. النزعة الوضعية لأصحاب المنهج التجريبى ....

أما المذهبية الإسلامية، ذات السيادة والتأثير فى مناهج الفكر بالحضارة الإسلامية، فإن لها فى هذه القضية موقفاً آخر مغايراً.

فالإنسان فى المنظور الإسلامى ليس دنيوياً فقط، لأنه مخلوق لله الواحد، سبحانه وتعالى. وهو فى هذه الدنيا ليس موكولاً إلى واقعة المحسوس وإلى حواسه وحدهما، لأنه فيها خليفة عن الله، سبحانه، مكلف بإعمارها وفق بنود عهد وعقد الاستخلاف، وهذه الأمانة التي حملها هى الإبتلاء الذى سيحاسب عليه، بعد البعث فى يوم الدين ....

إذاً ففي المنظور الإسلامى، ليست هذه الدنيا وليس عالم

الشهادة هذا هو العالم الوحيد الذي يؤمن بوجوده هذا الإنسان المسلم، فقبله كان عالم البدء.. وبعده يأتي عالم المصير.. فليست المادة والمحسوسات هي وحدها مصدر المعرفة، لأن عالمها ليس هو العالم الوحيد في هذا الكون وهذا الوجود..

ولأن الإنسان هو واحد من مخلوقات الله، التي تجل عن عد وحصر هذا الإنسان.. وبسبب من مكانته الخاصة المميِّزة، والمتميِّزة بين سائر المخلوقات؛ كانت رعاية الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسان، وهي التي تتخذ العديد من الصور، وتسلك الكثير من الطرق والأساليب.. ولما كان مصدر هذه الرعاية (الله سبحانه وتعالى)، ليس مادة. فلقد جعل لهذه الرعاية، بما تتضمن من فكر وتوجيه وعلم وتعليم، مصادر ووسائل غير تلك المادة المحسوسة التي تدركها حواس الإنسان... وهنا يأتي دور الرسالات السماوية في مصادر المعرفة لدى المؤمنين بهذه الرسالات.. فالوحي الإلهي - عبر الرسالات والرسل - هو مصدر - غير مادي للمعرفة والعلم والفكر والتوجيه - فعالم الشهادة هو أحد عوالم هذا الكون، وليس العالم الوحيد فيه.. والحواس التي يدرك بها الإنسان معارف عالم الشهادة، هي حواس إنسان مخلوق، فهي إذن محدودة القدرات والآفاق، إذا ما قيست بالقدرة المطلقة والعلم الكلي والمحيط لمن خلق هذا الإنسان ورعاه.. فإذا استقلت

---

(١) انظر كتابنا (الغارة الجديدة على الإسلام) طبعة دار الرشاد القاهرة سنة ١٩٩٨م. وكتاب (الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين) طبعة دار الوفاء القاهرة سنة ١٩٩٧م.

هذه القدرات الإنسانية بإدراك أمر فإنها لا تستقل بإدراك أمور . ولذلك فلقد مَنَّ الله ، سبحانه وتعالى ، على هذا الإنسان ، كمظهر من مظاهر رعايته له ، وبسبب من مكانته الخاصة بين المخلوقات - إذ هو الذي نفخ الله في طينته من روحه ، وحمل دونها أمانة الاختيار والمسئولية والتكليف ، مَنَّ الله على هذا الإنسان بأن يسر له مصادر للمعرفة ، وسبلاً لتحصيلها تتيح له علم ما لا تُعلِّمُه إياه ظواهر المادة في عالم الشهادة المحسوس . .

إن الله لم يكله - في المعرفة - إلى حواسه وحدها وإلى قدراته بمفردها . . فكانت رسالات السماء مصادر للمعرفة لاتلغى المعارف المحسوسة المشاهدة ، ولا تقلل من شأن أدوات إدراكها ، وإنما تضيف إلى المعرفة الإنسانية معارف يقينية لا تثمرها المادة ولا تستقل بإدراكها الحواس ، لأنها معارف عوالم غير مادية ، وإنباء عن مقادير من علم هذه العوالم ، تفضل بها على هذا الإنسان عالم الغيب والشهادة ، وذلك حتى لا يظل هذا الإنسان - المكون من الروح والجسد - بمعزل عن غذاء الروح وحبيساً للمعارف المادية دون سواها . كانت معارف هذه الرسالات السماوية :

- تأكيداً للمعارف العقلية الصادقة يُطْمئِنُ الإنسان العاقل على صدق ما وصل إليه بعقله الإنساني ، عندما وصل ، ذاتيا إلى تحسين الحسن وتقبيح القبيح . .
- وتصحيحاً لأحكام وتصورات الحواس - ومنها العقل الإنساني

ـ التى لم تصادف الحق والصواب لنسبية قدرات هذه الحواس ومحدودية آفاقها . .

● وإعانة لهذا الإنسان على معرفة وإدراك المقادير الضرورية لترشيد مسيرته من المعارف والعلوم التى لايستطيع عقله أن يستقل بإدراكها . .

● ودعوةٌ له كى يخوض فيما لا تدركه حواسه ، مما سكتت هذه الرسالات عن تفصيل خبره من المغيبات ، ومن الأحكام التعبدية .

فهى إذاً عوالم وميادين للمعرفة . . وهى أيضاً ، سبل متعددة لتحصيل المعارف اليقينية ، يؤمن بها الإنسان المسلم ، بحكم إيمانه الدينى ، وليس فقط عالم الشهادة ولا الحواس الإنسانية ، هى مصادر وأدوات المعرفة الحقة ـ كما فى « الوضعية ـ المادية » عند المفكرين الغربيين ـ . .

إن الإنسان المسلم ، بحكم إيمانه بتعدد عوالم هذا الكون وهذا الوجود . . وبحكم إيمانه بالكثرة والتعددية ، التى لا تستطيع كبشر حصرها فى أمم المخلوقات وجماعاتها فى هذا الوجود ، وبحكم إيمانه بالتكليف والمسئولية التى ترتبت على حمله الأمانة ـ كخليفة عن الله ـ الأمر الذى يقتضى حساباً وجزاء ، تنتفى بهما « العبثية » عن هذا الوجود . . . إن هذا الإنسان ـ بحكم ذلك الإيمان ـ لايقف بتطلعاته المعرفية عند عالم الشهادة هذا ، وإنما يتطلع أيضاً ، إلى ما

وراء هذا العالم، ويتلمس معارف لا تحتملها حواسه وحدها ولا تستقل بإدراك حقائقها.. وهو يشعر - بسبب من تجاوزه إطار الدنيوية المحدود - بأن سعادته -الدنيوية والأخروية - مرهونة بتكامل معارفه- ولو على نحو ما - عن الكثير من ميادين المعرفة ومصادرها... وهنا تأتي الرسالات السماوية بما تقدم من مصادر للمعرفة غير مادية لتلبي تطلعات هذا الإنسان.

تلك هي المنطلقات الإيمانية التي جعلت للمذهبية الإسلامية في مصادر المعرفة نهجا متميزاً عن ذلك الذي ساد لدى المفكرين الوضعيين الغربيين.

ولذلك وجدنا هذه المذهبية الإسلامية لا تقف مصادر المعرفة عند «المنهج التجريبي» وحده.. إنها لم تهمله ولم تغض من شأنه ولا من شأن ثمراته المعرفية، بل إنه أحد أبداعات حضارتها الإسلامية، فيها تطور، وأعطى ثمراته، قبل أن ينتقل ويتطور لدى الغربيين... إنها لا تهمله، ولكنها لا تقول بوحدانيته كسبيل للمعارف الإنسانية اليقينية.. وإنما هي تعتمد معه:

أ- المنهج الاستنباطي:

ذلك الذي يستنبط به الإنسان من الجزئيات المادية معارف تقطع بضرورة وجود غير مادي.

إن العقل المسلم عند ما ينظر في آيات الكون، وظواهره المادية،

والنظام المحكم الذى يحكم كل من ومـا ، فـيـه لا تقف مـعـارفـه المستنبطة عندما هو مادى منها ، تستقل حواسه بإدراكها ، وإنما هو يدرك ـ يقينا ـ ضرورة وجود غير مادى ، مفارق لهذا العالم المادى هو الذى منحه الوجود والنظام والانتظام .

ب ـ المنهج التاريخي :

الذي يستدل به الإنسان ، بواسطة التواتر النقلى ، على وجود مادى تاريخى لم تشهده حواسه . ومع ذلك فإن هذه الحواس تبلغ فى التصديق بوجوده مرتبة اليقين . .

جـ ـ المنهج السمعى :

ذلك الذى يكون الوحى الإلهى ـ البلاغ القرآنى ـ والسنة النبوية ـ البيان النبوى لهذا البلاغ القرآني ـ مصدر علومه ومعارفه . . فبهذا المنهج السمعي يدرك الإنسان المعارف المتاحة عن عالم الغيب ، غير المادى ، والذى يستحيل إدراكه بالأدوات المادية للإدراك . . كما يدرك المعارف التى تعين العقل على إدراك ما لا يستقل بإدراكه ، وتساعد الحواس على وعى ما لا تنفرد بوعيه . . .

وليس أمر هذه المعارف ـ التى تتحصل للإنسان بالمنهج السمعى ـ ليس أمرها فى الصدق واليقين بأقل مما يكون الحال عليه في معارف المنهج التجريبى . كما حسب ويحسب ذلك

الغربيون الذين رأوها « خيالاً ـ وميتافيزيقا » لا ترقى إلى مرتبة اليقين ... ليس أمر هذه المعارف وحظها من اليقين على هذا النحو من التواضع والتدني ... بل إن الأمر ربما كان على النقيض من تصور الغربيين لهذا الموضوع ... موضوع يقينية المعارف المتحصلة بواسطة المنهج السمعي.

فالمنهج السمعي، إذا اكتملت مقومات الثقة بمصادر معارفه، واجتمعت شروط الصحة لمأثوراته، رواية ودراية، فإن اطمئنان العقل المؤمن للمعارف المتحصلة بواسطته أكبر من تلك المتحصلة بمصادر الإنسان ... إذ الفارق عظيم بين من مصدره صاحب العلم المطلق والمحيط وبين من مصدره علم العالم المحدود القدرة والإمكانات ... والفارق عظيم بين علم المعصوم وعلم الخطّاء!

ولقد يتساءل الذين يشككون في هذه الحقيقة:

أنى للإنسان الذي يدرك بالحواس المادية، ويعقل بعقله، أن يتيقن بمعارف مصادرها غير مادية، ولا تستطيع الأدوات المادية للإنسان أن تختبر صدقها وتتحقق من درجة يقينها؟!..

وألا يكون تكليف الإنسان ـ وهذا حاله ـ بالتحصيل اليقيني لمعارف لا تستطيع أدواته المادية اختبارها، لوناً من ألوان التكليف بما لا يطاق؟!

قد يتساءل الذين يتشككون في هذه الحقيقة هذا التساؤل، الذي يبدو مستكملاً «الشكل المنطقي»!.. ولكننا ننبه على أن المعرفة بالمنهجين [illegible] الإجابة الإسلامية [illegible] هذا التساؤل من الأساس.

ذلك أن المسلم يدرك حقيقة وجود إله - غير مادي - خالق لهذا العالم، وقائم على رعايته.. يدرك ذلك بالعقل الناظر في «الصنعة» و«الصنع» [illegible] الوجود، وكتاب الكون المادي المفتوح.. فبالاستنباط العقلي يؤمن المسلم بالله المستجمع للكمالات المطلقة والقدرات المطلقة.. [illegible] الخالق لمخلوقاته في بعض من [illegible] هذا الخالق، كانت [illegible] الإلهي [illegible] في الرسل والرسالات السماوية، هداية للإنسان، [illegible] على درب الخلافة، وإعانة لعقله وحواسه على إدراك الضروري من المعارف التي لا تستقل قدراته بإدراكها ولا يتفرد عقله بعقلها

إذن.. فمصادر هذه المعارف السمعية، التي نتلقاها بالمنهج السمعي، لا تقل في المعقولية عن المصادر المادية للمعارف المستفادة بالمنهج التجريبي.. لأن هذه المصادر [illegible] هي مصادر معقولة، عقليا، للإنسان العاقل بالمنهج الاستنباطي، فليست هي من «الميتافيزيقا» والخيال الغريبين عن العقل ويقينه، كما يحسب الوضعيون الغربيون.. فإذا توفرت للأخبار السمعية شروط الصدق - رواية ودراية - بعد أن [illegible] معقولية مصادرها، رغم لا ماديتها ورغم غيبيتها، فإنها تكون قد [illegible]

كل شروط اليقين الذى يتطلع إليه العقل الإنسانى ويتطلبه فى المعارف اليقينية ..

تلك هى منطلقات المذهبية الإسلامية فى النظر إلى مناهج المعرفة .. وتلك هى طريقها المتميز فى اعتماد المنهج السمعى واحدا من المناهج التى تثمر المعارف الصادقة واليقينية فى النسق الفكرى الذى ساد فى حضارة الإسلام .. وبهذا المنهج غدت السنة النبوية - ومن قبلها القرآن الكريم - مصادر للمعرفة .. والمعرفة اليقينية .. فى مذهبية الإسلام

* * *

القرآن الكريم ، هو كلام الله ، ووصفه ، وكتابه الذى أحكمت آياته ، وبلاغه المبين ، على لسان رسوله محمد بن عبدالله ، ﷺ، إلى العالمين .. هو وحى الله إلى رسوله ومعجزة التحدى وآية صدق هذا الرسول .. وهو ، بمقاييس أرقى مستويات المنهج العلمى ، المصدر الذى لا يدانيه سواه ، إن فى الإعجاز المتحدى ، أو فى الحجية المعجزة ، أو فى توثيق الرواية ، أو فى عقلانية الدراية ، أو فى التعهد الإلهى له بالحفظ ، وبعدم تبديل ما فيه من كلمات ، وبالقطع بأن الباطل لا يأتيه من أى اتجاه

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .. « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم »[2] .. « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم »[3] .. « واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا

---

(1) الحجر: ٩. (2) يونس: ١٥.
(3) يونس: ٦٤.

مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)﴾[1] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾[2].

ولقد كان تطاول القرون - التي اقتربت من الخمسة عشر حتى الآن - شاهدا على صدق هذا الوعد الإلهي بالحفظ وعدم التبديل، ونفي الباطل، ومعجزة خالدة، ودليلا شاهدا على أن هذا القرآن الكريم هو - في مصادر المعرفة - أعلى درجات الصدق والثقة واليقين.. وذلك فضلا عن دلائل صدقه المستمدة من أدلة إعجازه الأخرى، التي لا مجال للحديث عنها في هذه الإشارة بهذا المقام.

ولقد كانت مهمة الرسول ﷺ وهو نبي بلغت دعواه الرسالة بهذا القرآن المُعجز قمة اليقين المعرفي.. كانت مهمة الرسول:

أ - **البلاغ لهذا القرآن الكريم**: وهي مهمة جاءه الأمر بها في كثير من آيات هذا القرآن، بلفظ «البلاغ» ومشتقاته، وبألفاظ أخرى تحمل ذات المضمون.. مضمون بلاغ هذا القرآن الكريم إلى العالمين.. ولقد نهض رسول الله ﷺ بهذه المهمة، فبلَّغ الرسالة، وأشهد على ذلك الله والناس أجمعين.. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا

---

(١) الكهف: ٢٧.

(٢) فصلت: ٤١، ٤٢.

أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾[1]

ب - **والبيان لهذا البلاغ القرآني:** وذلك بتفصيل مجمله وتفسير إشاراته .. والبسط لكلياته .. والتخصيص لعامه والتقييد لمطلقه .. ووضع الضوابط المعينة على التمييز بين محكمه ومتشابهه .. وأيضاً بتوقيت الشعائر والفرائض والمناسك ، وبيان مقاديرها وشروطها وأركانها وأنصبتها ومصادرها ومصارفها وهيئاتها .. إلخ .. إلخ .. ثم صياغة المقاصد الشرعية الكلية قوانين تحكم واقع الأمة وعلاقات أبنائها ، وتصبغهما بصبغة الله .. إلخ .. إلخ

تلك كانت المهمة الثانية من مهام الرسالة : مهمة البيان للبلاغ القرآني .. ولقد أنجزها الرسول ﷺ ، وكان فيها القائم بما فرضه عليه الله : ﴿ .. وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾[2] ، ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[3]

جـ - **والتجسيد العملي للرسالة الإلهية:** عقيدة وشريعة وقيماً وأخلاقاً ، التجسيد العملي لها ، بالتجربة النبوية ، والتطبيق النبوي

---

(1) المائدة: ٦٧. (2) النحل: ٤٤.
(3) النحل: ٦٤.

لمعالم المنهج الإسلامي ، والذي وضع الفكر القرآني في الممارسة والتطبيق ، وأحال المنهج الرباني بناء معاشًا في الحياة ، تخلقت من حوله إبداعات المسلمين ، المصطبغة بصبغته الربانية ، في شكل علوم وفنون ، وأبنية مدنية ، هي تلك التي مثلت حضارة الإسلام .

فالإسلام لم يقف ، في الرسالة المحمدية ، عند حدود البلاغ القرآني ، ولا البيان النبوي النظري لهذا البلاغ القرآني ، لأنه لم يكن مجرد مذهب ، أو نحلة فكرية ، أو وصايا يودعها الرسول أمانة لدى عدد من الحواريين .. وإنما كان ، عبر التجربة النبوية ، بناء حيًا معاشًا ، في الممارسة والسلوك والدولة والعلاقات .. لقد غدا صبغة الله التي صبغت الواقع والأمة والفكر والحضارة ، فكان القرآن - البلاغ الذي جسدته السنة النبوية - بالبيان النظري والتجسيد التطبيقي - كيانًا حيًا يحيا به المسلمون ، ويحيا في هؤلاء المسلمين!

تلك هي السنة النبوية ، في مفهوم كاتب هذه الصفحات ، وتلك هي مكانتها - كمصدر للمعرفة - مع القرآن أول وأوثق مصادر المعرفة السمعية اليقينية في حياة الإسلام والنسق الفكري للمسلمين .

ولذلك ، فإنه بحكم شمول البلاغ القرآني لشئون عالم الغيب والشهادة ، وجمعه للعقائد والكليات والوصايا والتوجيهات

والضوابط الهادية والموجهة والمرشدة والحاكمة لكافة مناحي الحياة الإنسانية .. ووفائه - باعتباره كتاب الرسالة الخاتمة والخالدة - بالإجابة على علامات الاستفهام الإنسانية عن المبدأ، والحكمة .. والتاريخ .. والواقع .. والمستقبل .. والمنتهى والمصير، وعن المعايير في كل ذلك .. بحكم شمول البلاغ القرآني ووفائه - كمصدر المعرفة الإسلامية الأول - لكل هذه العوالم والميادين - كانت السُّنَّة النبوية - بحكم كونها البيان العملي - في الفكر الإسلامي - للبلاغ القرآني، مصدرًا للمعرفة الدينية في كل ميادين ومناحي هذا البلاغ القرآني.

إن السُّنَّة - في عرفنا اللغوي - هي الطريقة .. وهي في عرفنا الشرعي: هي ما صدر عن رسول الله ﷺ غير القرآن من قول - وهو الحديث - أو فعل أو تقرير.

ومع صدق ودقة هذا التعريف .. فإن مقاصد هذا البحث، تجعل لتعريف السُّنَّة هنا أبعادًا تتسق مع هذه المقاصد، فنراها: منهج النبوة - النظري والعملي - الذي جسّد البلاغ القرآني، وحوّل كلمات الله واقعًا وحضارة يحياهما الناسُ الذين آمنوا بهذا البلاغ .. ومن هنا تأتي مكانتها كمصدر للمعرفة، تستمد صدقها - بعد اجتماع شروط الصدق في الرواية والدراية - من صلتها بالقرآن الصادق بالإعجاز .. إن إطار هذه السُّنَّة - كبيان للبلاغ القرآني - يحتم أن يكون لها في هذا البلاغ معنى أو مبنى، وهي

بذلك قد غدت وتغدو المصدر النبوى لبيان البلاغ الإلهى ، لافرق
كان هذا البيان النبوى أو اجتهاداً نبوياً أقره بلاغ القرآن .

وبهذا المعنى لعلاقة السُّنَّة النبوية بالقرآن الكريم . . وفى إطار موقف المذهبية الإسلامية من المنهج السمعى ، فإن المسلم لتتعدد فى هذه السُّنَّة ومنها - كمصدر للمعرفة :

أ - مصدراً لمعرفة أسباب نزول البلاغ القرآنى والوحى الإلهى على رسول الله ﷺ . . لما تمثله تلك من علم لتخصيص العمومات ووعى بحكمة التشريع ، وعون على مواكبة هذا التشريع لتطور عبر الزمان والمكان .

ب - ومصدراً لمعرفة التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى والحربى والأدبى للتجربة الإسلامية فى عصر صدر الإسلام ، وهى التى حولت البلاغ القرآنى والبيان النبوى إلى أمة وجماعة حية ومجتمع إنسانى وبناء حضارى معاش .

جـ - ومصدراً للفروع التى وقف القرآن عند أصولها ، ومنها نتعلم التمييز بين الثوابت والمبادئ والأركان والأصول وبين الفروع والمتغيرات ، التى تقوم وتنمو وتتجدد على عمد القواعد والأصول ، مرتبطة بها ، ومستضيئة بمصابيحها ، وفى ذات الوقت مظللة لمساحات جديدة من الوقائع والمشكلات .

د - ومصدراً لأبنية وهياكل الدولة الإسلامية التى أقامها

المسلمون لحماية الدعوة ونصرتها . وهي التي – مع ما يماثلها – قتال مانعي الواجبات المدنية التي اقتضتها الفرائض الدينية ، فاكتسبت صفة الواجبات الإسلامية وأهميتها ، حتى دون أن يرد تشريع لها بنصه صريحا في البلاغ القرآني .

هـ) وعصمة التشريع النبوي والتراث القانوني في السنة ، سواء ما كان منه التفصيل لمجمل القرآن ، أو ما كان منه اجتهادا فيما لا وحي فيه . وهي العصمة المتحققة في هذا الاجتهاد النبوي بين ما أقره الوحي بالنص عليه أو بالسكوت عنه ، وبين ما نزل الوحي مصححا له أو معدلا .

و) وعصمة التمييز في [illegible] السنة [illegible] (التغيرات – الدنيوية) ، التي يجب فيها التزام المقاصد دون حرفية التطبيقات . وهنا التمييز بين الثابت وبين المتغير مع الأعراف والعادات .

ز) وعصمة التمييز بين ما لا يستقل العقل بإدراكه – من حيث الحسن والقبح – في تشريع الأحكام ، [illegible] وفي كيفية [illegible] ، وبين ما هو من شئون الدنيا ، الموكلة إلى عقول البشر وخبراتهم على أن يستقل بإدراكها – حسنها وقبحها – بشرط أن تكون في إطار شرع الله

كل هذه المعارف — وغيرها مما ماثلها كثير — تنهض السُّنَّة النبوية ، في النسق الفكري الإسلامي ، ووفقا لقواعد المنهج السمعي ، مصدراً للمعرفة اليقينية في ميادينها .. بل إن صحيح هذه السُّنَّة ، الذي اجتمعت له شروط الصدق — من حيث الرواية والدراية — هو كنز للمعارف الإسلامية ، شديد الغنى وعظيم الثراء وجمّ الفوائد ، كان ولا زال وسيظل النبع للصورة المكتملة الملامح لمنهج النبوة الرباني ، في تطبيقاته الحياتية الحية .. وهو المنهج الفاعل في أي جهد جاد من أجل الإحياء والتجديد والنهوض بحياة الأمة ، عندما تتراجع تصوراتها وتطبيقاتها عن معايير ومعالم هذا المنهج ، فتعدو على إسلامية فكرها وواقعها عوامل الانحراف .

هنا ، تصبح السُّنَّة ، الكاشفة عن معالم منهج النبوة ، مصدراً عند المعرفة الجديدة لفكر الإسلام وواقع المسلمين

هذا عن مكانة السُّنَّة النبوية كمصدر للمعرفة في منهج الإسلام

* * *

نماذج شاهدة

وإذا نحن قدمنا نماذج شاهدة – أو على الأقل أمثلة لها – تؤكد صدق الذي نعتقد وندعو إليه هذه الصفحات، فإننا واجدون في عوالم المعارف التي تضمنتها السنة النبوية، المتواترة والمشهورة، والتي تحولت ثقافة واقعا تعيشه الأمة وتمارسه منذ فجر عصر الإسلام وحتى الآن وإلى ما شاء الله... إننا واجدون في عوالم معارف هذا المصدر النبوي ما يشهد على أن هذا هو مكانها من عوالم معارف المصدر الإسلامي الأول: القرآن الكريم، مكان البيان النبوي من «البلاغ الإلهي».

وعلى سبيل المثال:

- فالقرآن الكريم يشير إلى قضية «بدء الخلق»، ذلك الذي تفرد به الله سبحانه وتعالى، دحضا لادعاء من ادعى من الطواغيت وعبدة غير الله... ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾(1)... ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾(2)... ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم

(1) العنكبوت: ٢٠.
(2) السجدة: ٧.

يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ﴾(1) ، كما يتحدث القرآن الكريم عن أن أحداً من هؤلاء المكذبين لم يشهد بدء الخلق، حتى يكون له علم به أو فيه: ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾(2) .

وإذا كانت هذه الإشارات القرآنية إلى بدء الخلق، هي المنبع الثابت للمعرفة الإنسانية عن هذا الأمر الذي لم يشهده سوى الخالق سبحانه وتعالى، فقد نقلت لنا السنة النبوية نصوص المعرفة التي أتيح لنا طرف من أحاديثها ويقيم عن صورة الإنسان الذي خلقه بارئه في أحسن تقويم، ففي البخاري من حديث عمران ابن حصين يقول الرسول ﷺ: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض"(3) وفيه كذلك من حديث عمر: "قام فينا النبي ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه".

---

(1) [illegible]

(2) سورة الكهف: 51

فمن هذا المصدر النبوي ، وتبعاً للمصدر القرآني عرفنا ونعرف طرفاً من خبر بدء الخلق ، الأمر الذي أتاح لنا تصور الجلال الذي اختص به - مثلاً - خلق الإنسان ، حتى لقد أمر ملائكته بالسجود له .. بينما وجدنا هذه الصورة - لدى العلم الغربي ، الذي رفض المنهج السمعي - هي صورة الحيوان البدائي والهمجي!

● والتاريخ ما لم تسجله وتحفظه الكتابة ، تلك التي بادت مع أهله ومعالم مجتمعاتهم ، أو سبقت حقبة قدرة الإنسان على صنع الآثار الباقيات .. هذا التاريخ عن الأمم السالفة والحضارات البائدة ، نجد عنه وعن أممه إشارات في القرآن الكريم .. من ذي القرنين إلى عاد وثمود وأهل مدين .. وقرى ومواطن وأخبار الأنبياء والرسل السابقين .. وإذا كانت هذه "الإشارات التاريخية" هي القدر المتبقي من ذلك التاريخ ، فإننا واجدون في السنة النبوية طرفاً من المعارف فيها بعض التفصيل لما في البلاغ القرآني من إشارات لذلك التاريخ

● وواقع الجاهلية التي أخرج الإسلام أهلها من ظلماتها إلى نور الإسلام ، وهو واقع جماعة بشرية غلبت عليهم الأمية ، فكانت فقيرة في أدوات التدوين لتاريخ مجتمعاتهم - هذا الواقع الجاهلي - في عاداته وتقاليده وأعرافه .. في دينه وأوثانه ومناسكه .. في تشرذمه القبلي وعلاقات قبائله مع من جاورهم من الدول والشعوب .. في مكانة المرأة فيه .. وأنواع الزواج وعلاقات الرجال بالنساء .. في حلاله وحرامه .. في أنماط الإنتاج وعلاقات

ومصادر الأرزاق .. إلخ .. إلخ .. هذا الواقع الجاهلى ، والذى لا سبيل إلى فهم عمق الطهر الإسلامى وجذور الأثر الإسلامى إلا بتصوره ، باعتباره ميدان هذا الإنجاز ، والسبب فى معجزة البناء الحضارى الإسلامى على هذا النحو الذى جاء عليه .. هذا الواقع الجاهلى لن نجد مصدرًا من مصادر المعرفة والتعريف له أغنى من [illegible] النبى عليه الصلاة والسلام.

● [illegible] القرآن ، والذى ميز رسالة محمد ﷺ عن غيره من رسالات الرسل الذين سبقوه على درب اتصال السماء بالأرض .. [illegible]

[illegible]

العلاقات الدولية ، والمعايير التي حكمتها .. فهي هذه السنة النبوية ، قبل غيرها ، وأكثر من غيرها - بل وربما دون غيرها - ستجد ديوان المعارف ومصدرها ، الذي نعرف به ونعترف صورة التحضر والتمدن .. وماذا كانت تعني الهجرة في التطور من التعرب والبداوة إلى التمدن والحضارة .. وكيف كانت الشورى ، ومناهات مؤسساتها .. والتراتيب الإدارية والكتابات [illegible] والكاتبين ، والدلالة على الإيمان والعسكرية [illegible] وصنع نموذجها الإسلامي .. والأموال والخراج .. إلخ .. إلخ فهي في هذه الميادين ، وما ماثلها ، أوثق وأغنى مصادر المعرفة [illegible]

- وإذا كان البلاغ القرآني قد حدد مكانة الرسالة الخاتمة الخالدة في عقد الرسالات الإلهية للبشر .. مكانة المصدق في الاعتقاد الديني الواحد - أزلا وأبدا - والمهيمن في الشريعة المتغيرة باختلاف الرسالات

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾(1) ، وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من

(1) [illegible]

الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون»(1).

إذا كانت هذه هي مكانة الرسالة الخاتمة: عقيدة وشريعة [illegible] من هذه الرسالات السماوية وسلطتها، فإن في السنة النبوية وفي [illegible] [illegible] من [illegible] التي نستطيع أن نستشهد بها في هذا الفصل.

ففي حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) يقول رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون منه ويقولون: ما رأينا بنيانا أحسن من هذا إلا موضع هذه اللبنة، فكنت هذه اللبنة»(2).

وفي حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) يقول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق»(3).

[illegible] من التطبيقات العملية التي جسدت علاقات

---

(1) [المائدة: 48].

(2) [illegible]

(3) [illegible]

المسلمين بأهل الكتاب، في داخل المجتمع الإسلامي الناشئ والدولة الإسلامية الوليدة، ومع الدول والمجتمعات الكتابية المحيطة - وهي - هذه التطبيقات - جزء من السُّنَّة النبوية - إننا واجدون فيها قدرًا هامًا من المعارف، لا سبيل إلى تحصيلها في مصدر آخر من مصادر هذا الباب وذلك التاريخ.

● وإذا كان البلاغ القرآني يعلمنا - ضمن ما يعلمنا - المذهب الإسلامي المتميز في أثر السنن والقوانين المودعة في ظواهر الطبيعة وحقائق الوجود - وهو مذهب الذي يعترف بفعل السنن والقوانين في المسببات المتولدة عنها، مع الإيمان بأن هذه السنن والقوانين - مثلها مثل الظواهر والقوى التي أودعت فيها - هي جميعها مخلوقة من خالقها وخالق أسبابها هذه السنن وتلك الفاعلة... فهي مخلوقة لله وقدرة هي حكم الله وإرادته، وله سبحانه القدرة على إيقاف وخرق الاطراد المعتاد لعمل هذه السنن والقوانين إذا أراد إظهار إعجاز يؤيد به رسولاً أو يتحدى به من لا يخصونه بالألوهية والربوبية.

هذا ما يعلمنا إياه البلاغ القرآني عندما تشير آيات منه إلى سنن الله في الكون والوجود والطبيعة والإنسان والمجتمعات.

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (٥) ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون

وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[1] ... ﴿ .. إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾[2] ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين (٥٨) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[3] ... ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾[4]

تلك بعض من آيات البلاغ القرآني التي أشارت إلى بعض من سنن الله في [illegible] ... وعلى هذا الدرب جاءت السنة النبوية [illegible] تعرض [illegible] في هذا الميدان.

«ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم العدو»[5] ..

---

(١) [القصص: ٦].
(٢) [الأعراف: ١٢٨].
(٣) [القصص: ٥٨، ٥٩].
(٤) [الإسراء: ١٦].
(٥) رواه الإمام مالك في الموطأ.

«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو ليضربن الله بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»(1). «إذا رأيتم الظالم فلم تأخذوا على يديه يوشك الله أن يعمكم بعقاب من عنده»(2). «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»(3). «لا يلبث الجور بعدي إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء، ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء، ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره»(4). وسأل حذيفة بن اليمان رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أيكون بعد الخير الذي أعطينا شر، كما كان قبله؟

- فقال ﷺ: نعم!

- قال حذيفة: فبم نعتصم؟

- فقال ﷺ: بالسيف(5).

---

(1) رواه الترمذي وأبو داود والإمام أحمد.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه الإمام أحمد.

(4) رواه الإمام أحمد.

(5) رواه أبو داود والإمام أحمد.

«وإذا رأيتم أمتي تهاب الظالم أن تقول له: إنك أنت ظالم، فقد تُوُدِّع منهم»[1].. ومن حديث ثوبان – مولى رسول الله – يقول ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها. قال: قلنا: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟! قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن. قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت»[2].. «من احتكر طعامًا أربعين ليلة فقد برئ من الله تعالى وبرئ الله تعالى منه، وأيما أهل عرصة[3] أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى»[4].. «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»[5].

تلك أمثلة على أطراف من المعارف التي عرضتها السُّنَّة النبوية.. معارف السنن والقوانين التي أقامها الله وأودعها في الجماعات والمجتمعات والاجتماع.

● وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل الإنسان خليفة في

---

(1) رواه الإمام أحمد.
(2) رواه أبو داود والإمام أحمد.
(3) العرصة: الساحة والقطعة التي تحيطها [illegible] المنازل.
(4) رواه الإمام أحمد.
(5) رواه الإمام أحمد.

استعمار هذا العالم الذي يعيش فيه ، وعلى امتداد الآفاق التي يبلغها سلطانه . . وإذا كان البلاغ القرآني قد حث هذا الإنسان على النهوض بمهام الإعمار هذه ، فتحدثت آياته قارنة الإيمان العامل بالعمل الظاهر ، على نحو كاد أن يكون دائما ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ۞ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾[1] ﴿ فإذا فرغت فانصب ۞ وإلى ربك فارغب ﴾[2] .

إذا كانت هذه هي إرادة الله ، وهذا هو حديث البلاغ القرآني عن عمارة العالم الإنساني بالإيمان العامل والعمل المؤمن ، فإن البيان النبوي - السنة - زاخرة بمعارفه التي تمثل الزاد الذي لا ينفد في هذا الميدان . . فأحاديث العمل . . والمأثورات التي قننت لإحياء الأرض وعمارتها . . هي ما لا يتسع له المقام . . بل إن تجربة البناء الاجتماعي والاقتصادي لدولة الإسلام الأولى هي التجسيد العملي لهذا البيان النبوي في هذا الميدان . . وفي حديث أبي هريرة ، يقول ﷺ : «خير الكسب كسب يد العامل إذا

---

(١) الجمعة : ٩ ، ١٠ .

(٢) الشرح : ٧ ، ٨ .

تصح [1] ، بل إن تعظيم العمل الإنساني يبلغ في السُّنَّة النبوية المقام الذي يتحدث عنه حديث الرسول ﷺ ، الذي يرويه أنس ابن مالك : «إذا قامت الساعة ، وبيد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل» [2]!

تلك إشارات إلى المعارف التي تقدمها لنا السنة ، كمصدر للمعرفة في هذا الميدان.

● وإذا كانت العقيدة الإسلامية تأبى «العبثية» التي ترى في هذه الحياة الدنيا نهاية المطاف بالنسبة للحياة والأحياء .. وتجعل من الإيمان بالبعث والحساب والجزاء في اليوم الآخر ركنا من أركان الإيمان .. ولذا كان البلاغ القرآني قد أشار إشارات عديدة إلى البعث في معرض إقامة الحجة على منكريه : ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ [3] ، ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ [4] ، ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾ [5] ، ﴿إن الذين يشترون بعهد الله

---

(1) رواه الإمام أحمد.
(2) رواه الإمام أحمد.
(3) [الأنعام: 29].
(4) [التغابن: 7].
(5) [لقمان: 28].

وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم [1].

إذا كانت تلك إشارات إلى حديث البلاغ القرآني عن «البعث» وخبره، فإن معارف السنة النبوية عن أنباء «البعث» وصورة وأحوال الناس فيه، هي المصدر الذي يجد فيه المسلم ما يقرب صورة هذا الغيب، على نحو ما، إلى العقل المحدود لإنسان عالم الشهادة، الذي تتوجه إليه الرسالة الإلهية بالبلاغ والبيان.

ففي حديث أبي ذر، يقول رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المُسْبِل [2]، والمنّان، والمُنَفِّق سلعته بالحلف الكاذب» [3]. كما نعلمه، أيضا: «إن من أشد الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه» [4]!

هذا إلى ما تضمنته كتب السنة من صور تقرب للذهن الإنساني، قدر الإمكان، أحوال النفخ في الصور.. وأحداث ما بين النفختين.. وصورة الحشر.. ومكانه.. وصورة الناس فيه.. والحساب.. والميزان.. والجزاء.. والشفاعة.. ومن يظلهم الله يوم

(١) آل عمران: ٧٧.
(٢) المُسْبِل: [illegible]
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه الدارمي.

لا خالق إلا الله .. إلخ .. إلخ .. إلخ .. وغيرها من المعارف المقررة بالبصيرة والمقررة لإشارات البلاغ القرآني لهذا العالم الذي يستحيل على العقل البشري إدراك كنه حقائقه، كما يستحيل على لغة الحس أن تكون وعاء يفي بحمل ما في أنبائه من مضامين.

تلك أمثلة لمعالم شاهدة على المكانة المحورية لمصدر من مصادر المعارف المتعددة في البناء الفكري الإسلامي. ولعل في ما قدمنا من أمثلة ... ما يقدم ويحمل دليلا وشاهدا على صدق هذه المكانة المحورية لهذا المصدر في فكر الإسلام وفي حضارة المسلمين.

* * *

وأخيراً

فإن التماس الإنسان المسلم المعارف العديدة، من المصادر والميادين المتعددة، بواسطة السُّنَّة النبوية، إنما يفتح للعقل الإنسانى الجديد والعديد من الآفاق، وذلك دون أن يحد من قدرات وإمكانات وآفاق هذا العقل أو يقيد من طموحاته.. بل إن هذا النهج الإسلامى، الذى لا يقف - كالنهج الغربى عند المنهج الحسى التجريبى - إنما يقوم - مع تهذيب غرور العقل - بتوجيهه إلى الميادين الحقيقية التى تأهل لأن يبدع فيها، وذلك عندما يعلمه حقيقة عجزه عن الاستقلال بإدراك معارف عالم الغيب.. وكأنه - المنهج الإسلامى - يذكر العقل بالحقيقة الخالدة التى تقول: كل ميسر لما خُلق له!

كذلك، فإن هذا المنهج الإسلامى، الذى يجعل البلاغ القرآنى، وبيانه النبوى: مصدرًا للمعرفة اليقينية فى ميادين عديدة - يكون فى بعضها: مجرد حافز للعقل على النظر، وحافظ له من تجاوز الحدود.. ويكون فى بعضها: المعين والمؤازر.. ويكون فى أخرى: المصدر الوحيد لمعرفة ما لا قِبلَ للعقل بالخوض فيه.

إن هذا المنهج المتميز هو المحقق: تكامل المعرفة الإنسانية، وذلك عندما يحقق للإنسان قدرًا من معارف عالم الغيب، إلى جانب زاده وزاد اجتهاداته من معارف عالم الشهادة.. وهذا التكامل هو الذى يحقق «التوازن المعرفى» للإنسان، على النحو الذى ييسر له

«التوازن السلوكى» . . وبهما – التوازن المعرفى ، والتوازن السلوكى – تتحقق «المعانى» و«الحِكَم» و«العلل الغائية» من وراء خلق الإنسان ، واستخلافه عن الله ، سبحانه وتعالى ، فى عمارة هذا العالم . . فتنتفى – أو تقل – من حياته منغصات وأزمات «العبثية» و«اللا أدرية» و«الطرق المغلقة» ، التى تأخذ بخناقه فى ظل الحضارات المادية ، والتى قادته ودفعته – خارج منهج الإسلام ووسطيته – إلى مستنقعات : «الشهوة الحيوانية» و«اللذة الآنية» و«الأنانية المتعالية» و«النظرة العدمية» تجاه ما وراء عالم المحسوسات . . فلم ينجح التقدم المادى الذى أحرزه فى إنقاذه من القلق والقنوط والإحباط . . حتى لتصدق عليه الآية القرآنية التى تتوعد فتقول : ﴿ كُلُوا وتمتَّعُوا قليلاً إنَّكم مُّجرمون ﴾[1] . . وحتى لكأنهم دهريو العصر ، القائلون : ﴿ وقالُوا ما هي إلاَّ حياتُنا الدُّنيا نمُوتُ ونحيا وما يُهلكُنا إلاَّ الدَّهرُ ﴾[2] !

هذا هو منهج الإسلام ، العاصم للإنسان من هذا المصير . . به رأينا السُّنَّة النبوية مصدرًا للمعرفة ، تنهض بدورها إلى جانب البلاغ القرآنى فى إثراء معارف الإنسان المسلم ، وإغناء النسق الفكرى لحضارة الإسلام .

---

(١) «المرسلات : ٤٦» .

(٢) «الجاثية : ٢٤» .

الفهرس

إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقدم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشرى
- د . حسن الشافعى
- د . محمد سليم العوا
- أ . فهمى هويدى
- د . يوسف القرضاوى
- د . سيد دسوقى
- د . كمال الدين إمام
- د . عبدالوهاب المسيرى
- د . شريف عبد العظيم
- د . عادل حسين
- د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

